وقال القرطبي : السليم من الشك والشرك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد ، قال الأصوليون: المراد بسلامة قلب إبراهيم عليه السلام : أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي ، فدخل فيه كونه سليما من الشرك والشك ومن الغل والغش والحقد والحسد[٨].

*** استشكال وحله :**

إن قيل: ظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد.

**وجوابه:** أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب .[٩]

ولقد جاء الحديث الصحيح الذي وصف بأنه رابع أربعة من الأحاديث التي تدور عليها الأحكام:

**قالوا: عمدة الدين عندنا كلمات مسندات من قول خير البرية.**

**أترك المشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية** [١٠].

جاء الحديث وهو قوله ﷺ " ... **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**" [١١].

يقول القرطبي في أثناء تعليله لدوران الأحكام الشرعية على الأحاديث الأربعة ومنها حديث " **ألا وإن في الجسد مضغة...**" قال: لأنه اشتمل

(٨) الفخر ١٤٦/٥٦.
(٩) الفخر ١٥٠/٢٤ .
(١٠) فتح الباري ١٠٥/١.
(١١) رواه البخاري كتاب : الإيمان ، باب : فضل من استبرأ لدينه ، فتح ١٠٥/١ ، ومسلم كتاب : المساقاة والمزارعة ، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات ٢٧/١١.

على التفصيل بين الحلال وغيره وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب فمن هنا يمكن أن تُرد جميع الأحكام إليه [١٢].

قال النووي : بين ﷺ أن بصلاح القلب يصلح باقي الجسد وبفساده يفسد باقيه وفي الحديث التأكيد على السعي في صلاح القلب وحمايته من الفساد فالقلب السليم ــ كما يقول ابن القيم ــ هو : الذي سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير الله ، فسلم في محبة الله ، مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه ، والتوكل عليه والإنابة إليه ، والذل له وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد عن سخطه بكل طريق ، وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما ، بل قد خلصت عبوديته لله ﷻ إرادة ومحبة وتوكلاً وإنابة وإخباتاً وخشية ورجاءً ، وخلص عمله لله ، فإن أحب أحب في الله ، وإن أبغض أبغض في الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمان والاقتداء به وحده دون كل أحد .[١٣]

من خلال ما تقدم : هو القلب المرتضى عند الله وله أوصاف متعددة نقوم بتوفيق الله ﷻ بجمعها والطواف حولها من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة وأقوال المفسرين ، وهاك التفصيل.

(١٢) فتح الباري ١/١٠٥.
(١٣) أنظر : إغاثة اللهفان ص١١-١٢ .

** سرد صفات القلوب السليمة ، وهي كالآتي :-

**(١) الاطمئنان .**

وردت آيات متعددة تحمل وصف الاطمئنان لقلوب المؤمنين [١٤] ، من هذه الآيات قوله ﷻ : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...** ﴾ الآية البقرة ٢٦٠ .

والمعنى : أذكر حين طلب إبراهيم من ربه كيف يحيي الموتى ، سأل الخليل عن الكيفية مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ، فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان ، ولهذا خاطبة ربه بقوله ﴿ **قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ...** ﴾ أي : أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء، قال: بلى آمنت ولكن أردت أن أزداد بصيرة وسكون قلب ، برؤية ذلك فكان ما كان من أمر الله عز وجل[١٥].

والطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج[١٦].

يقول **القرطبي** ــ رحمه الله تعالى ــ الطمأنينة : اعتدال وسكون. فطمأنينة الأعضاء معروفة ، وطمأنينة القلب هي: أن يسكن فكره في الشيء المعتقد.

فاليقين في شأن خليل الرحمن موجود كائن ولكنه ﷻ يريد سكون قلبه بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان بأن الله قادر على ذلك.

إذن فالقلب المطمئن هو الذي امتلأ سكوناً وهيبة من عظمة الله ﷻ .

قال ﷻ : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .** ﴾ الرعد ٢٨.[١٧]

فبمعرفة الله والإكثار من عبادته يكتسب القلب سكونه.

---

(١٤) البقرة ٢٦٠. آل عمران ١٢٦، المائدة : ١١٣، الأنفال: ١٠،الرعد ٢٨ والنحل ١٠٦.
(١٥) صفوة التفاسير ١٦٦/١.
(١٦) الراغب ٣٠٧.
(١٧) أنظر القرطبي ٣٠٠/٣.

يقول **حجة الإسلام الإمام الغزالي** : " الطاعات تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقاً وثوراً وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين ، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر.[١٨] واستشهدوا بالآية السابقة .

## (٢) الوجل.

وردت صفة الوجل في آيات كثيرة من القرآن العظيم[١٩] منها قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الأنفال ٢ .

هذه الآية التي تثبت صفة معاكسة للصفة الأولى "الاطمئنان" رغم اتحاد الوصف بهما لقلوب المؤمنين.

فما الوجل ؟ وما بواعثه ؟ وما أقسامه ؟

الوجل: استشعار الخوف ، يقال: وَجِلَ يَوْجَل وَجَلاً فهو وَجِلٌ[٢٠]

الباعث على الخوف :

أقول إما رهبة الناس وخشيتهم ، وإما رهبة رب الناس وملكهم .

فإن كان الباعث على الخوف هو خوف العباد فهو خوف مذموم.

وإن كان الباعث على ذلك هو الخوف من رب الناس تَهَيُّباً من جلاله ، وعزه وسلطانه وبطشه بالعصاة فهو الخوف المرتضى المحمود.

يقول الشيخ زادة تعليقاً على آية الأنفال :-

﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : الوجل هو الخوف والفزع وهو ههنا متفرع على مجرد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله ، فإن هذا الخوف لا يزول

(١٨) الإحياء ٣/١٢ قال بعض السلف دواء القلب في خمسة أشياء : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين" البياتوني ص١٤١ .
(١٩) الأنفال ٢- المؤمنون: ٦٠ ، الأحزاب ١٠، غافر ١٨، النازعات ٨.
(٢٠) المفردات ٥١٣.

عن قلب من ذكر الله تعالى عالماً بنعوت جلاله وصفات كماله ، سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلاً أم مؤمناً تقياً.

فإن كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغنائه عن جميع ما سواه ويعلم احتياجه إليه في جميع مهماته ، فلا جَرَمَ يهابه ويقشعر جلده ، وتغلب عليه الدهشة بحيث يكاد يفنى وجوده" [٢١].

وقد شبه الوجل في القلب باحتراق السَّعَفَة ، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة ؟ قال: بلى: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله ، فإن الدعاء يُذهب بذلك [٢٢].

وقال سفيان الثوري سمعت السدي يقول في الوجل ــ بالكسر ــ : هو الرجل يريد أن يظلم ، أو قال يهم بمعصية فيُقال له اتق الله فيجل قلبه"[٢٣].

فالمؤمن الوجل هو المؤمن حقا كما قال ــ عز من قائل ــ ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر ٢٣.

وكما قال ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ المؤمنون ٥٧.

والخوف من الله ينقسم إلى قسمين :-

الخوف من عقابه سبحانه وهذا للعصاة ، والخوف من عظمته وجلاله ﷻ وهذا لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء أكان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلاً ، وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من

(٢١) زادة ٢/٢٩٥ .
(٢٢) الطبري ٩/٢٣٨و وابن كثير: ٢/٢٩٧ والدر المنثور: ٣/١٧٦.
(٢٣) ابن كثير ٢/٢٩٧ ، والدر ٣/١٧٦ .

الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنياً عنه ، وكونه محتاجاً إليه يوجب تلك المهابة ، وذلك الخوف[٢٤].

*** الخطوات الموصلة إلى الوجل :-**

وفي سورة " المؤمنون" يبين الحق تبارك وتعالى الخطوات الموصلة إلى الوجل فيقول عز من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ المؤمنون ٥٧-٦١ .

**فالخطوة الأولى:** الإشفاق من جلال الله وعظمته والخوف من عذابه. وذلك قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ .﴾

ومثله ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ الأنبياء ٩٠ .

**أما الثانية:** التصديق بآيات الله القرآنية والكونية فكلها براهين على وجود الله ﷻ ينطق بذلك قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ.﴾.

**أما الثالثة:** عدم الإشراك بالله تعالى والمراد نفي الشرك بعامة ونفي الشرك الخفي بصفة خاصة ، وذلك بالإخلاص في عبادة الله طلباً لرضوانه ينطق بذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ . ﴾

**أما الرابعة:** البذل والعطاء بسخاء ، وذلك بإعطاء حق الله في الزكاة وغيرها بالتقرب بكل أنواع القربات مع الخوف أن لا يقبل الله منهم وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . ﴾

(٢٤) مفاتيح الغيب: ١٥/١٢٢.

فالخوف يبعث على الاجتهاد لإزالة أسبابه مع الحذر من التقصير والإخلال ، روى الترمذي أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ قالت : سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال ﷺ : لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات ." (٢٥).

يقول **الفخر الرازي** : وهذا الترتيب في غاية الحسن لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والصفة الثانية: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والصفة الثالثة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين ، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها. أمين(٢٦).

**والإمام القرطبي** : له ملحظ جدير بي أن أنقله يخص أدعياء ظنوا أنفسهم أنهم من الوجلين الخائفين وهم واهمون في حالهم.

يقول **الإمام القرطبي** عن الخوف وأنه في الآية صفة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته ، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق الزئيد ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع إنك لم تبلغ أن تساوى حال رسول الله ﷺ ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف

(٢٥) رواه الترمذي ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة المؤمنون ٣٠٥/٥ .
(٢٦) مفاتيح الغيب: ٢٣ /١٠٧،١٠٨ .

منه والتعظيم لجلاله ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله ، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه ، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة ٨٣ .

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم ، فمن كان مستناً فليستن ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالاً ، والجنون فنون" (٢٧).

* **مسألة يوهم ظاهرها الاختلاف والتناقض هي :**

أنه جاء في وله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ . ﴾ الرعد ٢٨ .

جاء في هذه الآية الوصف للمؤمنين بالاطمئنان وهو السكون والراحة ، وجاء في قوله ﷻ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ الأنفال ٢ . الوصف بالوجل والخوف ، وهو أيضاً للمؤمنين ، فهل هناك اختلاف وتناقض ؟

**الجواب :** إن المؤمنين إذا علموا ما أعده الله لهم في الجنة دار الكرامة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إذا علموا ذلك استبشروا ، وفرحوا واطمأنوا ، وتهيأوا للنعيم المقيم ، وعند هذا تكون الطمأنينة والسكينة .

وعلى المقابل : إذا علموا ما أعده الله للعاصين والظالمين في النار ، التي ترمي بشرر كالقصر ، وفيها من أصناف الإهانة ما فيها : المهل ،

(٢٧) القرطبي: ٣٦٦/٧، ٥٩/١٢.

الصديد ، المقامع من حديد ، التميز من الغيظ ، الطمع في المزيد حتى يقول الله لها : هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ فهي ممزوجة بغضب الجبار ، أعاذنا الله منها .

إذا علم المؤمن ذلك خاف واقشعر واضطرب والتجأ إلى جناب الرحمن الرحيم ليقيه الشر والعذاب ، وهنا يكون الوجل .

والمؤمن الذي يحمل بين جنبيه قلباً يطمع في رحمة الله ويخشى عذابه هو مؤمن تحققت فيه غاية أوصاف المؤمنين المتقين ، وقد جمع الله ﷻ هذه الأوصاف في قوله ﷻ :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر ٢٣ .

## (٣) السكينة .

من صفات القلوب السليمة " السكينة" وقد وردت في القرآن في مواضع متعددة [٢٨].

من ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ الفتح ٤ .

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حدث له أهميته في حياة الإسلام والمسلمين حيث تتدخل معونة الله ونصرته لعباده الصادقين وقت الشدائد والمحن وذلك أنه لما مُنع ﷺ هو ومن معه من المسلمين من دخول مكة معتمرين كادت صفوف المسلمين تتفكك ، وتذهب ريحهم لعظم أمر احتباسهم من المشركين والحيلولة دون دخول مكة.

(٢٨) البقرة: ٢٤٨، التوبة: ٢٥،٢٦، ٤٠، الفتح: ٤،١٨،٢٦.

وجاء **عمر بن الخطاب** ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: " ألست نبي الله حقاً ؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى ، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري . قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال: بلى. فأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال: قلت لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال: بلى قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا..."

قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ ولن يضيعه الله أبداً ، فنزلت سورة الفتح[٢٩].

فأصل السكينة : الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات ؛ ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب كيوم الغار ويوم حنين ويوم الفتح.[٣٠]

أما السكون : فثبوت الشيء بعد تحرك.

وقد فسر الضحاك السكينة: بالرحمة. وقيل السكينة: الوقار، وقيل: الملائكة ، وهي بحسب ورودها تنتظم كل هذه المعاني.

قال ابن عباس: كل سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة[٣١].

(٢٩) أنظر صحيح البخاري : كتاب: الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٥/٢٦٤ . وكتاب: التفسير باب: هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين.
(٣٠) أنظر الراغب ٢٣٧ ، وبصائر ذوي التمييز ٣/٢٣٨-٢٣٩ .
(٣١) انظر القرطبي: ١٦/٢٦٤ والآية رقم ٢٤٨ البقرة.

## (٤) الرأفة والرحمة.

من صفات القلب السليم " الرأفة والرحمة" وقد ورد ذلك في مواضع متعددة في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها** .... ﴾ الحديد ٢٧ .

في هذه الآية المباركة بين الحق ــ تبارك وتعالى ــ أنه أودع في قلوب الحواريين وأتباعهم رأفة ورحمة ، وذلك نظير ما قيل في شأن أصحاب النبي ﷺ ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ الفتح ٢٩ .

فما هي الرحمة ؟ الجواب: الرحمة: رقة تقتضي الإحسان للمرحوم .

وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة. فإذا وصف بها الباري ﷻ فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف[٣٢].

يقول **الألوسي** : الرأفة في المشهور الرحمة ، لكن قال بعض الأفاضل: إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع ، وبالرحمة ما فيه جلب الخير ؛ ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح[٣٣]

(٣٢) انظر: بصائر ذوي التمييز ٥٧/٣ والوجوه والنظائر ٣٦١/١.
(٣٣) روح المعاني :١٩٠/٢٧.

وبما أن الرأفة في الأعم الأغلب مقدمة على الرحمة فقد فسرت بأنها أشد الرحمة [٣٤] ، وقد وردت الرحمة في القرآن على عشرين وجها.
وكذلك وردت الرأفة في ثلاث عشرة مرة [٣٥].

*** الخيريه.**

من صفات القلب السليم " الخيرية" قال تعالى :

﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾الأنفال ٧٠.

قال ابن عباس : إن يعلم الله في قلوبكم إيمانا وتصديقا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، نزلت في **العباس بن عبد المطلب** عم رسول الله ﷺ وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر ، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر ، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئا وبقيت العشرون أوقية من ذهب معه ، فلما أسر أخذت منه ، فكلم رسول الله ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه ، فأبى رسول الله ﷺ وقال له: **أما شيء خرجت به لتستعين به علينا فلا نتركه لك.**

وكان العباس قد فدى أخيه عقيل بن أبي طالب ، ونوفل بن الحرث ، فقال العباس : يا محمد تتركني أتكفف قريشا ما بقيت ؟ فقال رسول الله ﷺ: **فأين الذهب الذي دفعته لأم الفضل وقت خروجك من مكة به وقلت لها : إني لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم** " ــ يعنى بين بنيه ــ فقال

(٣٤) انظر حاشية الجمل : ٤٤٣/٧.
(٣٥) انظر البصائر ٥٧/٣، والوجوه والنظائر ٣٦١/١. والفروق اللغوية ص١٩٠.

العباس: وما يدريك يا ابن أخي ؟ قال : أخبرني به ربي ، فقال العباس: **أنا أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبده ورسوله، فإني أعطيتها إياه في سواد الليل ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله** ، وأمر ابني أخيه عقيلا ، ونوفل بن الحرث فأسلما ، فذلك قولة تعالى: ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم**﴾ الأنفال ٧٠ .

يعني الذين أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيرا** ﴾ يعني إيمانا وتصديقا ﴿ **يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾ يعني من الفداء، ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ يعني ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ يعني لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه ، رحيم بأهل طاعته .

قال العباس : فأبدلني الله خيرا مما أخذ مني عشرين عبدا كلهم تاجر يضرب بمال كثير أدناهم يضرب بعشرين ألفا مكان العشرين أوقية ، وأعطاني زمزم وأحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل[٣٦].

فالخير: ضد الشر وهو ما يرغب فيه كالعقل مثلا والعدل والفضل والإحسان .

والخير يقابل به الشر مرة ، والضر مرة أخرى ، نحو قوله تعالى:﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير** ﴾ الأنعام ١٧. ، والخير يفسر على ثمانية أوجه[٣٧] منها الإيمان كما في الآية محل الشاهد.

---

(٣٦) أنظر: الألوسي ١٠/٣٦، والجمل: ٣/٢٢٤.

(٣٧) أنظر: الفيروزابادي ٢/٥٧٢، والدامغاني ١/٣٠٠.

**(٦) الطهر.**

من صفات القلوب السليمة الطهر ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما** ﴾ الأحزاب ٥٣ .

والمعنى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي** ﴾ ﷺ في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه ﷺ مراعاة لحقوق نسائه وحرصا على عدم إيذائه والإثقال عليه إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نضجه، ولكن إذا دعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ، فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ، ولا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم ببعض ، إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول ﷺ ، ويمنعه ﷺ حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، والله لا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه ، وهذا أدب أدب الله به الثقلاء ، وإذا دعت الضرورة حاجة من أزواجه ﷺ فاطلبوه من وراء حاجز وحجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن.

هذا مجمل ما تحتويه الآية الكريمة.

فعلام تعود الإشارة في "ذلكم" الأولى والثانية :

* أما الأولى : فعلى اللبث الدال عليه الكلام أو الاستئناس ، أو المذكور من الاستئناس والنظر ، أو الدخول على غير الوجه المذكور ، والأول أقوى ملاءمة للسياق والسابق .

*أما ذلكم الثانية :فالظاهر أنها إشارة إلى السؤال من وراء حجاب .[٣٨] وأطهر: أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأجلب للعفة، وأنفي للريبة وسوء الظن ، لأن العين روزنة القلب ، أي : موصل صورة الأشياء إلى القلب. فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر.

ومن هنا كان فرض الحجاب ، قال **القرطبي** : "وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض أو مسألة يستفتين فيها ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة بدنها وصوتها[٣٩] فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة كالشهادة عليها ، أو داء يكون ببدنها أو سؤالها عما يعرض ويتعين عندها .

فالإسلام حريص على تجنيب أبناءه مخاطر الاختلاط إبعادا لهم عن الريبة والتهمة ، وذلك أحسن للحال ، وأحصن للنفس[٤٠].

وحيث إن الآية السابقة قد احتوت على مطهرات القلوب تعليما للمسلمين وتبيينا للموحدين فإن آية سورة المائدة تبرز أوصاف قوم جنحوا إلى النفاق واستقر في قلوبهم فكتب الله عليهم عدم طهارة القلب.

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه**

---

(٣٨) الألوسي ٢٢ /٧١-٧٢ .

(٣٩) قلت : كلها عورة إلا ما خصه الدليل من الوجه والكفين ، أما صوت المرأة فالأصل فيه أنه ليس بعورة إلا إذا صحب الصوت بتكسر وترقق وتغنج وغيره ، فهنا تأتي الحرمة.

(٤٠) انظر: القرطبي ١٤/٢٢٧ ، ٢٢٨، والفخر ٢٦/٢٢٦، وصفوة التفاسير ٣/٥٣٤، والألوسي : ٢٢/٧٢.

**يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم .﴾** المائدة ٤١ .

فالإشارة في "أولئك" إلى المذكورين من المنافقين واليهود ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، أي : من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما ، وإصرارهم عليهما ، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية ، كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولا ، وشرح فنون ضلالهم آخرا.

والجملة استئنافية مبينة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم، وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء[٤١].

يقول **ابن القيم:** فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق ، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ﷻ ورسوله ﷺ ، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني.

قال **عثمان بن عفان** ﷺ: **" لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله "**

فالقلب الطاهر ــ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ــ لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه ، ولا يتداوى إلا بأدويته ، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه ، بحسب ما فيه من النجاسة ، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

(٤١) أبو السعود ٢/٥٨.

ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل ، المحرفين للحق لم يحصل لها طهارة .

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلابد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرم الله ﷻ الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث ، ولا يدخلها إلا بعد طيبة وطهرة ، فإنها دار الطيبين ؛ ولهذا يقال لهم : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ الزمر ٧٣ .

أي ادخلوها بسبب طيبكم ، فالجنة لا يدخلها خبيث ، ولا من فيه شئ من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرا من نجاسته دخلها بغير معوق ، ومن لم يتطهر في الدنيا ، فإن كانت نجاسته عينيه كالكافر لم يدخلها بحال ، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة ، ثم لا يخرج منها ، والله ﷻ بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة ، فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر، وكذلك الجنة فيها طهارتان طهارة البدن ، وطهارة القلب فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة ، فالذي يجتمع له الطهران يصلح للدخول على الله تعالى ، والوقوف بين يديه ومناجاته .[٤٢].

وقد حمل جمهور المفسرين قوله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر .** ﴾ المدثر ١-٤ .

حملوا الأمر بتطهير الثياب على تطهير القلب ، يقول ابن القيم: "وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق[٤٣].

(٤٢) انظر إغاثة اللهفان بتصرف ص٦٣،٦٤.
(٤٣) إغاثة اللهفان ص٦٢.

إذا فطهارة القلب من أعظم صفات المدح والثناء ، وعدم طهارته من أعظم أسباب الشقاء والازدراء .

## (٧) الإخبات.

من صفات القلوب السليمة الإخبات ، قد ورد لفظ الإخبات في آيات ثلاث في القرآن الكريم[٤٤] ، منها قوله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم .** ﴾ الحج ٥٢-٥٤ .

يتحدث الحق ــ جل وعلا ــ عن حملة وحيه "الرسل" الذين يتمنون إيمان الناس بربهم وإسلامهم الوجه لله ﷻ ويتحدث عن الشياطين وما جبلوا عليه من كراهية طريق الله ﷻ ووقوفهم وقفة الأعداء في وجه المرسلين ، كما قال تعالى: ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .** ﴾ الأنعام ١١٢ .

وكأن الآية جاءت تسلية للرسول ﷺ تقول له : "لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين.

(٤٤) هود : ٢٣، الحج: ٣٤، ٥٤.

ثم يبين المولى ﷻ سنته أيضا حيال مكر الشياطين وإنه يبطله ثم يثبت آياته الدالة على وحدانيته ويجعل وساوس الشياطين فتنة للمنافقين وللكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وإن الكافرين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله.

وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق الحقيق بالإيمان فيؤمنوا به فتخبت له وتخشع وتسكن قلوبهم ، بخلاف من في قلبه مرض ، وإن الله لمرشد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم .

والإخبات: نزول الخبت وهو المكان المنخفض ، وتفسيره بالإخلاص لأنه لازم للتواضع والتذلل[٤٥].

وإخبات القلوب: يكون بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص ، ولكل أوامر الله على التعميم[٤٦]، قال تعالى: ﴿ ....**وبشر المخبتين بشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .** ﴾ الحج ٣٤-٣٥ .

ولقد ورد عن السلف تفسيرات متعددة للمخبتين كلها ترجع إلى ما ذكرنا سابقا وإن اختلفت العبارة.

قال **سفيان:** هم الراضون بقضاء الله ، وقال **الكلبي:** المجتهدون في العبادة، وقال **عمرو بن أوس:** الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا[٤٧].

---

(٤٥) الشهاب: ٥١٧/٦.

(٤٦) الألوسي : ١٧٤/١٧.

(٤٧) القرطبي : ٥٩/١٢، ولمراجعة مواطن الإخبات ومعانيه انظر: الوجوه والنظائر، للدامغاني: ٣٢٦/٢، والفيروزابادي : ٥٢١/٢.

## (٨) الخشوع.

من صفات القلب السليم "صفة الخشوع".

قال تعالى﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .**﴾ الحديد١٦ .

سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن المبارك في الزهد عن الأعمش قال: " لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه واكثروا المزاح والضحك فنزلت ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا..... الآية**﴾[٤٨].

فهذه الآية بمثابة استبطاء قلوب المؤمنين فعاتبهم الله تعالى على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن الكريم.

قال **ابن عباس**رضي الله عنهما : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن الكريم[٤٩].

وهذا استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه ، والمعاتب ــ على ما قاله الزجاج ــ: طائفة من المؤمنين وإلا فمنهم من لم يزل خاشعا منذ أسلم إلى أن ذهب إلى ربه.

ورأى آخر يقول إن الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد ﷺ ؛ لأنه قال عقيب هذا: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ، أي : ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى ، إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم [٥٠].

---

(٤٨) السيوطي في أسباب النزول ص٢٨٠.
(٤٩) أنظر بصائر ذوي التمييز:٣/٥٤١.
(٥٠) أنظر القرطبي : ١٧/٢٤٨.